

جهود الحركة الإصلاحية بمدينة تبسة ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال: "مذكرات شاهد للقرن لمالك بن نبي

The reform movement's efforts in Tebessa's city to maintain the national identity, throughout the memory of century's by Malek Bennabi

ط. د/ يمينة سعدي¹، أ. د/ لياس نايت قاسي²

¹المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، meriemsadi850@gmail.com

²المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، lies.naitkaci@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/11/18 تاريخ القبول: 2025/01/13 تاريخ النشر: 2025/01/31

ملخص:

كانت مدينة تبسة شاهدة على ميلاد الحركة الإصلاحية في بداية القرن العشرين، ويعتبر المفكر مالك بن نبي الذي عاش هذه الفترة وأرخ لها في مذكراته شاهداً على ذلك فارتأينا أن نستقي من كتاباته التي تناولت هذه الفترة ونحلل أوضاع المجتمع التبسي وكيف احتضن النشاط الإصلاحي، والدور الفعال الذي لعبه في استمرارية الحركة الإصلاحية الداعية للحفاظ على مقومات هويته من دين ولغة وبقية عناصر ثقافته وكيونته وانتمائيه الحضاريين في ظل ابتداء المستعمر لأساليب أكثر نجاعة في استئصال جذور هذا المجتمع والقضاء على الحلقة التي تصله بماضيه، كما عرج بن نبي على مطبات النشاط الإصلاحي والتي وقفت ومازلت تقف في وجه التغيير الجذري.

كلمات مفتاحية: الحركة الإصلاحية، النشاط الإصلاحي، المجتمع التبسي، مقومات الهوية.

Abstract:

At the beginning of the twentieth century, Tebessa city witnessed the reform movement, Malek Bennabi was one of the prominent thinker who lived this period and mentioned it in his diaries. The study seeks to examine Malek 's writings that dealt with that period, to analyze the structure of the Tebessian society and how it embraced reform activity and the effective

role it played in the continuity of the reform movement for preservation of its identity, religion, language, culture, and civilization ;in light of the colonialists' invention of effective methods to uproot the roots of this society and to eliminate the link that connects the society to its past.Bennabi also pointed out the pitfalls of reform activity, which have stopped and still evident in the face of radical change.

Keywords: Reform movement; Reform active; Tebessian societ; Identity components

1. مقدمة

عرفت مدينة تبسة على غرار بقية مدن الجزائر أثناء الاستعمار الفرنسي سياسة استعمارية قاسية، حيث اختطفت المدينة من سكانها، لصالح المعمرين وطبقت على السكان المحليين قوانين مجحفة كقانون الأهالي البغيض والذي خصت به الجزائر دون بقية المستعمرات الفرنسية، إضافة إلى فرض الضرائب ومصادرة الأراضي وسياسة الترحيل والتجويد وتجفيف منابع التعليم بغلق الكتاتيب ودور العلم وبالتالي انتشار الفقر والجهل والامية وانعكست هذه السياسة بصورة قاتمة على أوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأمام هذه الأوضاع المزرية لم ييأس المجتمع التبسي وخاض غمار الإصلاح وأنشأ أول مدرسة إسلامية حرة بالقطر الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي، بقدرات فردية تلاها التفاف الجماعة حول هؤلاء المبادرين بالخطوة الأولى للتغيير، بعزم على الانطلاق في التغيير ومواجهة الغزو الثقافي الفرنسي لكل ما يمت من صلة للهوية الإسلامية العربية. وفي ظل هذه الظروف عاش صاحب مذكرات شاهد للقرن، وكان شاهد عيان بالفعل على الخطوات الأولى للحركة الإصلاحية بمدينة تبسة التي كانت أنموذجا في تحد زحف الثقافة الفرنسية وما تحمله من نظرة حضارية استغلالية.

ولا يمكن لقارئ حذق لمذكرات مالك بن نبي في شقها الأول أن يسميها سيرة ذاتية عابرة لأحد مفكري القرن العشرين، وإنما تعتبر كمصدر مهم يؤرخ لتطور الحركة الوطنية عامة والتيار الإصلاحي في بداياته حتى أطرته جمعية العلماء المسلمين فيما بعد وينقل لنا حسب وجهة نظر ذاتية حينا وبموضوعية أحيانا أخرى، الأحداث والمجريات والمتغيرات التي طرأت في الجزائر عامة وفي مدينة تبسة خاصة ولا يفت أن ينثر بين ثنايا مذكراته مقومات الحضارة، ذلك المفهوم الذي أرق

حياته الفكرية حتى وفاته، وقد استبشر خيرا بميلاد النشاط الإصلاحي بمدينة تبسة وعبر مالك بن نبي عن ذلك بقوله: كانت تبسة عبارة عن مركز ثقافي تلتقي فيه عناصر الماضي بطلان المستقبل.

والإشكالية المطروحة في بحثنا هذا كالتالي:

كيف ساهم النشاط الإصلاحي في مدينة تبسة في الحفاظ على مكونات الهوية الوطنية؟

وتندرج تحتها مجموعة من المشكلات الفرعية:

لماذا كانت مدينة تبسة من بين المدن المؤهلة لاحتضان الحركة الإصلاحية في بدايتها؟

ماهي الإرهاصات الأولى للإصلاح في مدينة تبسة وأهم مظاهره؟

وماهي التحديات والمعوقات التي واجهت هذه الحركة الإصلاحية؟

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي والمقارن للأحداث والشخصيات.

المبررات المنهجية لدراسة مذكرات شاهد للقرن:

(إن دراسة أي موضوع يحتاج إلى مصادر أولية وقريبة زمانيا ومكانيا منه، وخلال تطرقنا للحركة الإصلاحية في مدينة تبسة، وجدنا أن المفكر مالك بن نبي خصص جزء من مذكراته للكتاب حول نشوء التيار الإصلاحي باعتباره ترعرع بالمدينة وعاش طفولته وجزء من شبابه بالمدينة وأرخ لهذه الفترة المهمة من النشاط الإصلاحي في بواكيره ويمكن تبرير اختيارنا لهذا المصدر كالتالي:

■ اعتبار الكثير من دارسي التاريخ بن نبي كمفكر لا كمؤرخ لحقبة تاريخية

مهمة، رغم الاستشهاد بكتاباته ومنه مذكرات شاهد للقرن وهم من فعل ذلك شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله.

■ وتعد هذه المذكرات كمصدر مهم جدا لتتبع مسار الحركة الإصلاحية منذ بدايته

وأهم مظاهرها وروادها والتحديات التي واجهتها في ظل السياسة الاستعمارية، والتغيير الذي طرأ على الفرد

2. الأوضاع العامة للمجتمع التبسي قبل ظهور الحركة الإصلاحية:

1.2 مدينة تبسة والاستعمار الفرنسي:

تبسة من بين مدن الشرق التي كانت حصينة على الاستعمار الفرنسي والتي استعصت عليه، وكانت مدينة بسيطة في معيشتها والحياة بها رتيبة. ولم تصبح تبسة بلدية كاملة الصلاحيات إلا بتاريخ 1880، أي بعد نصف قرن من الاحتلال وهذا ما يؤكد عصيان سكانها وتمردهم في وجه الاستعمار، والذي عمل في الأخير على تمدينها تهيئة لها لوفود المستوطنين، ويذكر بيار كاستال في هذا الصدد: بلغت مدينة تبسة درجة من التطور والتمدن يسمح لها بأن تحكم نفسها بنفسها، وفي هذا السياق صدر عن الحاكم العام قرار مؤرخ في جوان 1880 ترتقي بموجبه تبسة من بلدية مختلطة إلى بلدية ذات صلاحيات كاملة (كاستال، 2010، صفحة 269).

2.2 أوضاع المجتمع التبسي، اقتصاديا :

وينقل لنا مالك ب نبي في مذكراته، أوضاع تبسة الاقتصادية بقوله: "كان للعائلات المقيمة داخل المدينة أيضا قطعانها من الأبقار ترسلها باكرا خارج المدينة" (بن نبي، 1984 ، صفحة 21). ونستشفى من خلال حديثه عنها أنه غلب على نمط معيشة سكانها، اقتصاد الكفاف، وأهم مورد اقتصادي اعتمدته العائلات التبسية المقيمة داخل المدينة هو تربية الأبقار.

فقد طبقت السلطات الاستعمارية منذ دخلت قواتها الجزائر سياسة عملت من خلالها على تجريد السكان من أراضيهم ومنحها للكلون في إطار ما يسمى بالاستيطان، كما سنت القوانين الرادعة، ضيقت من خلالها على معيشة المدينين، واستنزفت الثروات الطبيعية لخدمة اقتصادها (براهمي، 2017، صفحة 04).

وبذلك امتزج الريف بالمدينة والفاصل بينهما ربما يكون سور كاركلا الشاهد على تعاقب الحضارات، وقابلية مدينة تبسة للتمدن والتحضر إن وجدت لذلك سبيلا. وقد تأخر الحضور الفرنسي، التعبير الأدق الذي اختاره بن نبي ليصف ما اضافته المحتل على المدينة، وإن لم تكن مدينة بالمعنى المتعارف عليه، وحسبه يعود تأخر الحضور لطبيعة تربتها ومناخها، وهذا ما شكل دفاعا ذاتيا، فليس من اليسير تأقلم المستوطن الأوروبي مع بيئة لا تتشابه مع ما تركه في أوروبا.

3.2 أوضاع المجتمع التبسي الاجتماعية والتعليمية:

وفيما يخص الحياة الاجتماعية بما تحمله من أسلوب عيش، فإن المجتمع التبسي تصدى للغزو الثقافي في أكله وشربه، من حيث لا يدري، فكان أغلب طعامه بما تجود عليه تربة المنطقة من قمح يطحن، ويفتل في شكل كسكس، وإذا أراد تحلية فالفطائر هي الحاضرة والماء القراح هو أعذب ماء.

وأبلغ قول يجسد ما تطرقنا له هو جملة بن نبي: "لقد تمكنت تبسة من المحافظة على روحها القديمة وعزتها بفضل بساطة الحياة وجذب تربتها" (بن نبي، 1984 ، صفحة 23) ونضيف إلى ما قاله بن نبي هو طبيعة سكانها الذين يرفضون أي شكل من أشكال الاستعمار، ونقصد هنا السكان الذين امتدت جذورهم لأعماق تربتها، والذين تربطهم علاقة روحية بالأرض وقد وصفهم ضباط فرنسا في أكثر من مرة بالخارجين عن القانون، ولا يمكن تطويعهم بسهولة.

كان لانعكاسات السياسة الاستعمارية في الجزائر عموما وفي تبسة خصوصا آثار وخيمة على معيشة السكان، لاسيما وأن الأغلبية الساحقة منهم تعيش من ممارسة نشاط الفلاحة والذي تضرر من جراء مصادرة الأراضي ، فضلا عن الظروف المناخية القاسية كالجفاف، فشحت مصادر مداخلهم ولم تكن كافية لتأمين لقمة العيش، ولم تعكف السلطات الفرنسية على تأمين مرافق صحية لهم ،كما لم يكن لهم الحظ والحق في تأسيس مرافق تعليمية حتى لو كانت بسيطة جدا.(براهمي،2017 ص9)

ويمكن ان نسمي الإنسان الذي يعيش في هذه المدينة بالمقاوم، المتمسك بالفطرة في حقه في الحياة رغم شظف العيش لم تقتصر سياسة فرنسا على جانب دون آخر، فقد كان من بين أهدافها الرئيسية، إزالة هوية الجزائر الأصلية من لغة ودين وعادات وتقاليده متوارثة ساهمت في تماسك المجتمع.

والاستعمار الفرنسي ككل استعمار لا يمكن أن يشذ عن القاعدة من حيث صورة وجوده بالجزائر، فمحمد الميلي يرى وكل الدارسين لتاريخ الجزائر، أن فرنسا ارتكزت على ثلاثة محاور: تشويه التاريخ، القضاء على اللغة العربية وتجفيف منابع ثقافتها ومحاربة الإسلام (أقيس، 2012، الصفحات 37-38).

ويسرد بن نبي بداياته في التعليم بالقول:

وبالنسبة لأوضاع التعليم فلم تكن أقل سوءا، فقد قام الاستعمار الرجعي بسياسة التجهيل بقصد تجميد المجتمع الجزائري وتقويض دعائمه (الأشرف، 2007، صفحة 419).

ويذكر بن نبي في مذكرات شاهد على القرن:

"لقد أرسلوني إلى المدرسة الفرنسية إلا أنني في الوقت نفسه ثابرت على التردد على مدرستي القديمة، لتعلم القرآن، فكنت أقصدها كل يوم في الصباح الباكر" (بن نبي، 1984 ، صفحة 24).

ونحن في القرن العشرين، ولكن طرق التعليم في الجزائر عامة وتبسة ماتزال جامدة ولا حياة فيها، وتحرص أغلب العائلات في المدينة على إرسال أبنائها الذكور إلى المدارس التقليدية التي تلقن القرآن وما تعلق به من نحو وقواعد اللغة في أحسن الأحوال.

ويمكن اعتبار هؤلاء محظوظين، رغم طرق التعليم التقليدية التي تعلموا بها، في ظل سياسة تجهيلية فظيعة يذكر أجیرون ذلك بقوله: وباسم سياسة الدمج ثم العلمنة، حددت المدارس القرآنية بدقة وتم مراقبة مدارس الزوايا وأغلقت، ومنذ ذلك الحين تفهقرت معرفة اللغة العربية الأدبية، إذا كانت لا تكاد تدرس (أجیرون، د ت).

وحسب تقييم بن نبي لنمط التدريس الدارج وبصفته قد تتلمذ في كلا المدرستين، فقد تحدث عن الفرق بين المدرسة الفرنسية ومدرسته القديمة (الكتاب) "... وأضف إلى هذا أن الفارق الذي كنت أحس به بين المدرستين والمعلمين، كان يجعلني لا أطيق هذا الوضع، فبدأت أنغيب عن مدرسة القرآن القديمة وسجادة الخفاء، مما كان يعرضني لعقاب متواصل من أبي ومن معلم القرآن...."

فهناك فئة كبيرة من مرتادي هذه المدارس، إن لم نقل جلهم ينفرون من طرق التعليم التقليدية والتي تقوم على التلقين وبث الهلع أحيانا في صفوف المواظبين على الدراسة فيها، ربما يعود الأمر لحرص المعلم أو "الطالب" كما يطلق عليه على مكانة تحفيظ القرآن والصرامة في ذلك.

وقد زواج سكان مدينة تبسة بين التعليم الديني (حفظ القرآن في الكتاتيب) كإرث متأصل قبل الاحتلال الفرنسي، تشبها بالهوية الإسلامية وتعليم أبنائهم اللغة العربية، خاصة أن نسبة كبيرة تتكلم اللسان الشاوي.

ويرجع الحرص الشديد على تعليم أبنائهم اللغة العربية من خلال تحفيظهم للقرآن منذ نعومة أظافرهم، خشية فرنسة لسانهم في المدارس الفرنسية على قلتها وحرصا على عدم اندماجهم نهائيا في الثقافة الفرنسية، إذ أنهم تعلموا أولى حروفهم بعد لهجتهم الشاوية أو دارجتهم العربية.

ويمكن ان نسمي هذا الحرص بالوعي المبكر للأباء على اختلاف درجات ثقافتهم، إن لم نقل أميتهم.

ويصف بن نبي طريقة تلقي المتعلمين للدروس في الكتاتيب والمدارس الفرنسية

:

أن الأول أدى إلى نفور بعض مرتادي الكتاتيب لحفظ القرآن، وحتى لو أجبرهم ذويهم فإنهم يشعرون بالملل، نظرا لظروف التعليم القائمة على التلقين والقسوة في العقاب، والاعتماد على اللوح الحجري (الصماغ) بينما جذبت المدرسات الفرنسيات بأسلوبهن اللطيف م وأناقتهن، التلاميذ الجزائريين.

ويمكن أن نعقب على حكم بن نبي القاسي نوعا ما، بالقول أن هذه الكتاتيب والزوايا رغم أساليب التعليم التقليدية هي حافظت على مكونات الهوية وتصدت لسياسة التجهيل من جهة وسياسة الفرنسة والذوبان في المجتمع الفرنسي.

وهكذا كانت الأوضاع العامة لسكان تبسة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي غداة ميلاد الهبة الإصلاحية التي غيرت وجه المدينة الراكدة وجعلتها أكثر حيوية ونشاطا، ومن ثم سوف تكون شاهدة على بوادر الإصلاح الأولى.

3. بوادر الحركة الإصلاحية:

كانت مدينة تبسة مهية أكثر من أي مدينة أخرى لاحتضان بواكير النشاط الإصلاحي لقربها من تونس ومراكزها التعليمية والإصلاحية كجامع الزيتونة ووصول الصحف والدوريات عبر تونس، ولعودة طلبة العلم متحمسين لنشر العلم الذي تلقوه وإخراج المجتمع من ظلمات الجهل أمام تضيق السلطات الفرنسية الخناق على التعليم العربي وادعائهم أن الجزائري غير صالح للتعليم والتهديب.

على عكس ما كان يروج له المستعمر الفرنسي بأن الجزائري غير قابل للتعليم والتهديب فقد شهدت تبسة سنة 1913 الموافق لـ 1331 هـ، تأسيس أول مدرسة عربية إسلامية حرة في الجزائر المستعمرة، وهي المدرسة الصديقية (عيساوي، 2013، صفحة 53).

ويذكر بن نبي في هذا الصدد: " أن بن حمادة لا بد أن يذكر على أنه أول جزائري عمل على بعث اللغة العربية في البلاد، وبفضله ارتفعت ضمن أسوار تبسة جدران أول مدرسة (بن نبي، 1984 ، صفحة 27).

وهذا يعبر عن بوادر فردية للتشبث بأصول الهوية، وأبرزها اللغة العربية رغم المضايقات الفرنسية.

أخذت الخيرة على اللغة العربية بعض الرواد فأسسوا أول مدرسة قرآنية عصرية

حرة في تبسة...

دائماً ما تكون البدايات الثابتة هي الانطلاقة الحقيقية للتغيير وإصلاح مجتمع مر على محاولة اجتثاث هويته قرابة القرن آنذاك، لأمر صعب جداً والمجتمع التبسي لم يختلف حاله عن بقية أحوال الأهالي في الجزائر المستعمرة.

فأمام التأثيرات الاستعمارية وسعيه لنشر ثقافته، إلا أنه لم يستطع لذلك سبيلاً، فهناك فئة كبيرة صمدت في وجهه، أمام انتشار الخرافات والدجل، ولكن ما أن تسنح الفرصة لهذا الشعب المناضل للتغيير إلا ويعتقها خاصة إذا وجد السبيل لين وميسر، وكمثال لأحد المصلحين الغيورين على الدين واللغة والحرصين على تيسير الأمور وتسهيلها أمام غير المتعلمين نجد الشيخ سليمان إمام المسجد العتيق أحد أوائل المصلحين الدارسين بالأزهر عاد للمدينة بعد رحلته في طلب العلم، وكأنه درس ذهنية المجتمع ونمط تفكيره الذي يستكين أمام اللين والدهاء كما ذكر بن نبي: "جاء الشيخ سليمان مدينتنا في أواخر الحرب، وسرعان ما اكتسب ثقة الناس به (بن نبي، 1984 ، صفحة 79)" فكما يقال كان ابن الشعب الذي يقاسمه الحلوة والمرّة، وينزل منزلتهم، والمدرّك لدواخلهم وتحت سلطان الدين ترتدع قساة القلوب. واتخذ من المسجد منبراً للدعوة والإصلاح.

وفي وصفه لوظيفة المسجد الحيوية يقول بن نبي: "أصبح المسجد قلب المدينة النابض، وتولى الشيخ سليمان تأسيس أول جمعية خيرية فيها" (بن نبي، 1984 ، صفحة 79) وكأننا نعيش في العصور الهجرية الأولى، حيث كان المسجد هو مركز المدينة، حيث توكل له كل المهام الاجتماعية والتربوية والتعليمية.

وشيناً فشيناً غدت للزوال بعض العادات البربرية كما وصفها صاحب المذكرات، وكانت خطب الجمعة هي المنبر الذي تبث فيه كل الرسائل المراد توجيهها، فقد حرص الشيخ سليمان على نبذ النذب والعويل في الجنازات ويقابله الإقلاع عن الصخب والضجيج في احتفالات الزواج، أي المبالغة في الحزن أو الفرح.

ولكن هذه البوادر الأولى للإصلاح لا تحمل في طياتها خططا، أي الأهداف المراد بلوغها من خلال إصلاح أوضاع المجتمع. وهذا الذي يعوزنا اليوم للانطلاق نحو الأفضل، ألا وهو التخطيط المتبوع بالوسائل والمرامي.

وهذا ما يؤكده بن نبي: "لم تكن لدى الشيخ سليمان خططا إصلاحية لكنه كان يصلح بالفعل، ولم يكن يعي أنه يرسّي بذلك أسس الإصلاح في الروح التبسية (بن نبي، 1984 ، صفحة 80)"

والشيخ سليمان على غرار بقية العلماء القاصدين لجامع الزيتونة والأزهر، الذين ينهلون من رحيق علمائها ومكتباتها ثم يعودون متشبعين بأفكار الإصلاح ومتحمسين لنشرها

ونلتمس جذور الإصلاح الحقيقي وقابلية الفرد التبسي لتغيير العادات (غير المناسبة) المكررة والمملة والتي مضى عليها دهر، حتى غدت بلا فائدة كقصص "ألف ليلة وليلة"، التي دأب على تكرارها على مسامع الجمهور، الحكواتيين في المقاهي، وتحول هذا الجمهور الى المساجد، متحلقين حول الدروس .
وكل هذا كان إذانا بميلاد الحركة الإصلاحية.

4. الحركة الإصلاحية ومظاهرها:

المقصود بالحركة الإصلاحية بالجزائر عموما وبمنطقة تبسة خصوصا ليست جمعية العلماء المسلمين فقط، لأنه مع ظهور جمعية العلماء، لم يكن جميع رجال الإصلاح قد انضموا إليها، بل هناك من كان يعمل منفردا عن رجال الإصلاح ومع بروزها انضم إليها (بعلوج، دت).

فأي مجهود رامي لإصلاح أحوال الأفراد والمجتمع واخراجه من الوضع المزري الذي يعيش فيه يسمى حركة إصلاحية لديها وسائل ومرامي وغايات تنشد لها للحفاظ على هوية المجتمع الجزائري من لغة ودين وسلوكات حضارية تعارف عليها ، وكانت البداية بالتعليم ، لأنك عندما تعلم فردا فإنك تعلم أمة لأنه سوف يكون ناقل للرسالة فيما بعد لأفراد أسرته وقبيلته ومدينته، إضافة إلى التركيز على النوادي والجمعيات والتمسك بالعادات والتقاليد الحميدة وتشجيع الفنون والذوق الجمالي.

1.4 التعلـيم:

ما ساعد مدينة تبسة لتكون حاضنة لبوادر الإصلاح هو قربها من تونس ومراكزها التعليمية كمنطقة نفطة Nafta التي شكلت مركزا ثقافيا، يقصده طلاب العلم الذين يعكفون على حفظ القرآن في زاوية سيدي (بن سعيد أو سيدي عبد الرحمن) وأغلبهم لا يملكون المال الكافي لإكمال دراستهم في جامع الزيتونة (بن نبي، 1984 ، صفحة 80). وكان الشيخ العربي التبسي أحد طلبة زاوية نفطة ومنها توجه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة حوالي سنة 1913، أما منذ سنة 1920 فقد ذهب التبسي إلى مصر وقضى هناك سبع سنوات وتخصص في الشريعة وحصل على العالمية، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1927 م (سعدالله، 1998 ، صفحة 255)

ولم يشذ الشيخ العربي التبسي على التقليد السائد بالعودة إلى مسقط الرأس، أي تبسة وتلقين العلم لمن يحتاجه، وهكذا كانت انطلاقته الإصلاحية مستأنسا بالرواسب الثقافية التي تركها الجيل الإصلاحي الأول دون أن يدرك أنه يهيئ لمشروع مجتمع وبذرة قابلة للنمو إن وجدت من يعتني بها، على ببساطة أفكار الجيل الأول.

كانت الأرضية مهيأة لاستقبال مواعظ وتوجيهات العربي التبسي وهو عائد من الأزهر، فقد سمد الشيخ سليمان وعلى منواله الصدوق بن خليل والشيخ عسول التربة لاستقبال الأفكار الإصلاحية، وهذا ما يؤكد تعطش المجتمع التبسي للإصلاح، ولهذا جذبت جمعية العلماء العديد من رجال المنطقة لنشر أفكارها.

"ويعود الشيخ العربي التبسي من القاهرة وفي جعبته حماس للأفكار التي تلقاها هناك" (بن نبي، 1984 ، صفحة 100)

وهذه العودة خلفت صراع فكري بين فريقين، أي أتباع كل شيخ. الشيخ سليمان وتدرجه في التخلص من العادات الخاطئة للسكان ومرونته في محاولة منه لتصحيحها، والعربي التبسي وصرامته في اجتثاث هذه العادات الباطلة.

وكان المجتمع التبسي كان ينتظر من يوجهه ويقوده لإخراج الطاقة الكامنة فيه، وكان العربي التبسي هو النبراس الذي أضاء لهم الطريق، وباكتسابه صفة متخرج من الأزهر وما تثيره هذه الصفة من هيبة ورهبة في صفوف بسطاء الناس قبل متعلميهم.

"ويمكن أن نلاحظ منذ تلك الفترة أن علمنا لم يذهب من تلقاء نفسه ليحمل أنواره حيث ينتشر الجهل، بل كان على الجهل أن يسعى إلى العلم ليغتترف منه"

وقد نوه بن نبي لقضية جوهرية ومهمة، وهي ترفع العلماء عن البحث عن الذين يحتاجون إلى العلم ليبثوهم لهم، " (بن نبي، 1984 ، صفحة 167)

فالنادي فتح الباب أمام العالم والجاهل ليرتاد أماكن العلم، كما أن هذه الخطوة عززت من مكانة الفرد التبسي المحروم من أدنى حقوقه في الاجتماع وتخصيص أماكن لذلك، وبالتحديد في ساحة القصبة المكان الذي كان خاص بالأوروبي.

ومن ثمار هذا النادي هو استعادة الشاب التبسي أو لنقول الجزائري الثقة بنفسه، كما أن تلك التصرفات المقلدة للمستوطنين بدأت شيئا فشيئا تختفي، كحلقات الرقص المقامة كل ليلة والتي يحضرها الأهالي، وإضافة إلى محاربة شرب الخمر.

ويؤكد بن نبي على دور بناء مسجد حر غير خاضع للسلطات الفرنسية بقوله: وهاهم أولاء السكان منذ ذلك التاريخ يشرعون ببناء مسجد غير خاضع لرقابة الإدارة، وكانت هذه بالضبط خصائص ولادة المجتمع وليست الكلمات التي أريد صيها

جهود الحركة الإصلاحية بمدينة تبسة ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال: "مذكرات شاهد للقرن لمالك بن نبي"

في ضمير الشعب... ففي تلك الفترة لم تتشغل تبسة بأمور الزعماء وانتخاباتهم، بل بأمور الشعب وتوجيهه نحو بناء المجتمع الجزائري (بن نبي، 1984 ، صفحة 169).
ويضيف:

"وهكذا أضحى النادي الينبوع الذي تستمد منه الحياة الاجتماعية في المدينة قوتها ففيه ولدت فكرة المدرسة وفكرة المسجد الجديد (بن نبي، 1984 ، صفحة 170).
"وجدت تبسة تغلي بحمى الإصلاح، لقد بني المسجد الجديد والمدرسة، وقد جمعت التبرعات من الناس من أجل البناء" (بن نبي، 1984 ، صفحة 184)
فما إن اتقد فتيل الإصلاح حتى هب الشعب كل حسب مقدوره لإيجاد مكان ليجتمع فيه دعاة الإصلاح.

فقد كانت العاطفة الدينية المتجذرة لدى الشعب الجزائري منذ القدم دافع قوي لهذا التغيير ودليل على تشبته بهويته التي أراد الاستعمار استئصال جذورها، والفئات التي لم تحتك بالثقافة الفرنسية وعلى بساطة تفكيرها كانت الأقرب للتمسك بمقومات هويتها، فالشعب لم ينسلخ عن مكوناته الثقافية وإنما كان بحاجة إلى تأطير.
فالشعب كما قلنا بحاجة لمن يأخذ بيده نحو الأفضل وفي نفس الوقت نحو الأسوأ، فقد رأى في دعاة الإصلاح المنقذ له من الجهل، "فكان للمرء أن يصبح مكافحا في سبيل الإصلاح لخدمة هذا الشعب أو لاستغلاله (بن نبي، 1984 ، صفحة 185).

2.4 نادي الشبيبة الإسلامية:

اختصر بن نبي روح المجتمع في شعوره الجمعي، كينونته وتضامنه وتوحده على هدف مشترك، وهذا هو مفهوم الأمة أو بمعنى أدق القومية، وتكمن ذاتية قرارته بناء على هذا الاشتراك في الشعور، فأى قرار سوف يصدر عنه سوف يكون لصالح المجتمع لأن الفرد الصالح أو الوعي نتاج لمجتمع متوازن، يملك هوية واحدة راسخة، يسعى للمحافظة عليها. وهذا ما تجسد من خلال إنشاء النوادي والجمعيات ونادي الشبيبة الإسلامية خير مثال
أ/تأسيسه:

ونقلا عن جريدة البصائر فإن النادي أنشأ سنة 1937 (جريدة البصائر، 14 جوان 1938، صفحة 06)

يقع مقره في وسط المدينة وكان لتدشين نادي الشبيبة الإسلامية وقع كبير على سكان تبسة، وانتظروا قدوم الشيخ العربي التبسي من مدينة سيق بتيارت ليشرف على ذلك، وتتجلى ثمار الإصلاح في مشاركة معاقري الخمر ومدمني القمار في تدشين

النادي ومساهماتهم المادية كذلك في بناء المدارس الإصلاحية فقد دفع أحدهم 10 آلاف فرنك لبناء مدرسة إصلاحية. (بن نبي، 1984 ، صفحة 185) فبذرة الخير مدفونة وتحتاج لمن يسقيها ويتعهد لها لتنمو في جو سليم.

وكان يتردد عليه المثقفون وطلاب العلم وأهل الفن من أدباء وكتاب وشعراء منطقة تبسة أمثال: إبراهيم مزهودي، العيد مطروح، علي الساسي، عيسى سلطاني، إبراهيم روابحية، محمد محفوظي، الشاذلي المكي، مالك بن نبي، مصطفى زمرلي، محمد الشبوكي... وكانت تقام فيه الاجتماعات كل مساء، كما كان أعيان المنطقة يزورونه من حين لآخر. (بعلوج سليم، ص347، د.ت)

ب/ أهدافه:

وقد كان الهدف من إنشائه التغلغل في أوساط الشباب، وجعله مكان للقاءات المفتوحة لجميع الناس لكن الفكرة الرئيسة لتأسيسه هي نيل تعاطف الشبيبة قصد التأثير عليها أخلاقيا وثقافيا، إضافة إلى إقامة نشاطات اجتماعية متنوعة. (بعلوج سليم، ص348، د.ت)

ويعد نقل نادي الشبيبة الإسلامية من مقره الصغير الذي تأسس فيه إلى الميدان الرئيسي المزاحم للمقاهي الأوروبية الكبرى استراتيجية بناءة لمواجهة الثقافة الفرنسية التي تبث في المقاهي والتي يرتادها في الغالب الجزائريين المتأثرين بكل ما هو فرنسي. "في المدينة أضحى النادي القلب الذي تنظم نبضاته جريان الأفكار وانتشارها" (بن نبي، 1984 ، صفحة 185).

ج/ نشاطاته:

وكان للنادي برنامج خاص به وأعماله التي يقوم بها والتي منها استقباله واحتضانه لكل جهد إصلاحي في أي من المجالات سواء التربوية، الفنية، الفكرية، الرياضية وغيرها (بعلوج سليم، د.ت 2018، صفحة 350).

فكان النادي ملتقى التبسيين، وكان رجال القبائل يتلقون الأفكار الجديدة عندما يترددون نحو السوق، وبعدها ينشرونها في الدواوير، وبالتالي تأثير النادي تجاوز المدينة ليعم كل الأنحاء حتى الأرياف المجاورة له، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على شغف الشعب لتلقي العلم وتقبل الأفكار الإصلاحية وعلى حجم المعاناة التي يتكبدها المجتمع جراء السياسة الاستعمارية التجهيلية التي حاولت بشتى السبل فصل الجزائري عن انتمائه الحضاري.

جهود الحركة الإصلاحية بمدينة تبسة ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية من خلال:
"مذكرات شاهد للقرن لمالك بن نبي"

وهذا النشاط الإصلاحي الكثيف، غير البنية الاجتماعية للمدينة من الركود والحياة الرتيبة المستكينة لسياسة التجهيل ونشر الخرافات إلى الاصطفاف وراء دعاة الإصلاح، حتى أن المجتمع غير وجهته الدينية من المسجد العتيق الذي تشرف عليه الحكومة الفرنسية إلى المسجد الجديد الذي شيده الأمة منذ سنين (بن نبي، 1984 ، صفحة 295).

وكان المتحلقون حول دروس الشيخ العربي التبسي ينافسون مرتادي مقهى "باهي" المعروف في المدينة، وبالتالي فقد دبّت الحياة الجدية في صفوف الكثير وشحنت همتهم لتعلم لغتهم ودينهم وكل ما يتعلق من أمور دينهم في جو روحي وعلمي منظم.

وكذلك اعتبر مقدم الشيخ البشير الإبراهيمي لمدينة تبسة حدثا عظيما، تداوله السكان لعدة أشهر نظرا لما للإبراهيمي من مكانة ومعزة لكونه من رواد الإصلاحي الذين لم يبخلوا بجهدهم من أجل تنوير المجتمع وتثبيت مقوماته

3.4 الفنون والعادات والتقاليد:

لا تقتصر الهوية على مرتكزاتها الأساسية من دين ولغة بل كذلك في المظهر العام والعادات المتوارثة في اللباس والموسيقى وأسماء الشوارع والمحيط وإضافة الى المسرح الذي اعتبر أداة للحفاظ على الهوية.

أولا: اللباس عنوان للأصالة والتشبث بالهوية.

لقد رفض المجتمع التبسي الأصل أي شيء وافد من المستعمر الفرنسي في شتى المجالات.

يقول بن نبي:

"هل يسمحون لك في المدرسة حيث تتلقى العلم بارتداء زي كافر؟ إنه لم يكن يستطيع أن يفرق بين نظرته إلى العلم ونظرته إلى اللباس، بالنسبة له كان واضحا أن الثوب يصنع الراهب" (بن نبي، 1984 ، صفحة 99)

اعتبر المصلحون أن اللباس جزء من الهوية لا ينفصل عنه، والتشبث به هو مقاومة فكرية لأي غزو ثقافي، لأن تقليد الفرنسي في لباسه وطريقة عيشه ينجر عنه أمور أخرى، وتعبير صريح للمستعمر من خلال اللباس العربي أننا أمة تختلف عنهم ولن تندمج فيهم حتى في أبسط الأمور.

ثانيا: الموسيقى العربية والمسرح كرافدين حضاريين.

وكما تمسك المجتمع بلباسه واعتبره جزء من هويته، فالموسيقى العربية اعتبرت كذلك صورة من صور المواجهة الثقافية ، حيث يذكر بن نبي في مذكراته: "كانت تلك مرحلة بطولية، تمكنت فيها هذه الألحان الجديدة من أن تعيد للموسيقى العربية في نفوسنا مكانتها فتأثر لنا من موسيقى الجاز وسيطرتها"

وهنا نجد بن نبي، يتحدث باعتزاز وتفاخر عن جمال الموسيقى العربية الوافدة من مصر ويصف المرحلة بالبطولية. وتحد للموسيقى الغربية الصاخبة،

. فقد استورد صاحب مقهى تبسي أسطوانة مصرية، وهذا لأول مرة يحدث في الجزائر، يقول بن نبي: "والواقع أن الأسطوانة المصرية سوف تلعب فيما بعد دورا بارزا في تطور البلاد الفني والسياسي" (بن نبي، 1984 ، صفحة 101).

واستراد الأسطوانة المصرية يعتبر مواجهة ثقافية للموسيقى الفرنسية، باعتبار مصر بلد يشترك مع الجزائر في العديد من مكونات الهوية. لأن الموسيقى جزء من ثقافة المجتمع وتعكس الذوق الجمالي، ودليل على التحضر، وخاصة تلك التي ترتبط بالقيم السامية.

وكما كان لتبسة الفضل في ظهور أول أسطوانة مصرية، فقد كان لها الفضل في ظهور أول فرقة مسرحية، حيث يؤرخ بن نبي في مذكرات شاهد للقرن بقوله: " وفي هذه السنة ظهر في تبسة المسرح الجزائري لأول مرة حين أمت فرقة (المزهر البوني) التي أسسها في عناية سي (الجندي) وكان يعمل وكيلا ثقافيا.

وهذه الزيارة للفرقة المسرحية بعثت في رؤوس شباب المدينة كما ذكر بن نبي فكرة تأسيس فرقة مسرحية تبسية. وهذا يعتبر وعي ثقافي مبكر، وتعبير عن الرغبة في التغيير والاهتمام بكل جديد يمكنه إثراء الساحة الثقافية والفنية. واعتبر صاحب المذكرات المسرح أداة تخدم اللغة العربية إن أحسن استغلالها، ونستشف هذا من قوله:

كان بإمكان هذا المسرح أن يساعد على إحياء اللغة العربية وأمجاد الماضي. (بن نبي، 1984 ، صفحة 186).

حسب بن نبي كان بالإمكان استغلال المسرح في تثبيت دعائم الهوية ومن بينها اللغة العربية بتمثيل مسرحيات بها واستغلال الرصيد التاريخي للأمة الإسلامية وتجسيد بطولاتها واستنهاض همم الشباب

ثالثا: أسماء الشوارع

شارع الرسول :

إن تسمية أحد شوارع بهذا الاسم يحمل الكثير من الدلالات، فاسم الرسول مشترك بين الديانات السماوية الثلاث، ولدى المسلمين يرتبط أكثر بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو المقصود من خلال هذه التسمية، وهو تصرف ذكي بترك كلمة الرسول دون إضافة "محمد"، وكذلك تمسك عميق بالدين.

ففرنسا حاولت تغيير المحيط وأسماء الشوارع والأماكن وتسميتها بأسماء شخصيات فرنسية كالكتاب على سبيل المثال: فيكتور هيغو، لافونتين، موليير وأسماء شخصيات عسكرية أو رجال دين كلا فيجري، مخترعين كلويس باستور وماري كوري وغيرهم لتغليب الثقافة الفرنسية على الثقافة الجزائرية والأسماء العربية الإسلامية التي تحمل دلالة الاعتزاز والافتخار بالرصيد والإرث العريق

5. تحديات ومآلات الحركة الإصلاحية بمدينة تبسة:

كانت بداية الحركة الإصلاحية في الجزائر عامة وفي تبسة خاصة، ذات صدى ووقع قوي على معظم فئات المجتمع والتف حولها الجميع، وبحماس منقطع النظير صارت سنواتها الأولى مغيرة الكثير من العادات السيئة كالنواح أثناء الجنائز، والتوسل بالأولياء والإيمان بالخرافات، والتأكيد على وحدة الصف، ولكن سرعان ما تقطنت السلطات الاستعمارية لهذا التغير الإيجابي في سلوكات المجتمع، فعملت على ترك أمر مواجهته لأفراد من المجتمع في حد ذاته، أي هؤلاء الموالين للحكومة الفرنسية تحت دعوى جلب المصلحة ودرء المفسدة وإيهام سواد الشعب بهذا بطريقة سفسطائية، وسماه بن نبي انحراف، أي انحراف الشعب عن مبادئه التي سار عليها في كنف الإصلاح في ظل حنكة المستعمر ودقة ملاحظاته التي كان يرصد لها اعوانه المندسين في كل مكان، وما يعيب على رجال الإصلاح حسب بن نبي ضبابية مواقفهم، وعدم وقوفهم بالمرصاد لبداية تخلخل الصفوف.

"لم يكن العلماء على جانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري، حتى يفتنوا إلى هذا الانحراف، ولم يكن لديهم من حدة المزاج وصرامة الإرادة ما يكفي حتى يتداركوا الموقف" (بن نبي، 1984 ، صفحة 319)

وقد خابت آمال بن نبي اتجاه ما ظنه البوصلة التي سوف تغير المجتمع وتعلي من مكانته وتماسكه كجماعة بدل فردانيته وعشوائية قراراته كسابق عهده، فحسبه الترابط الروحي والمعنوي ووحدة الهدف والغاية أرفع من الشعارات والخطابات العاطفية الحاملة والبعيدة عن الواقع المعاش والميدان العملي هو الفيصل لتحقيقها.

"ولكن بدا لي المنظر الاجتماعي أكثر جدبا وأفضى قطا، ولم تبقى فيه تلك الرابطة التي كان المرء يشعر بها بين القلوب والعقول المجتمعة حول قضية في جو يضفي عليها القداسة.." (بن نبي، 1984 ، صفحة 384)

وكان بن نبي عدو الخطاب الشعبي، الذي يلقي في جو حماسي كجو المقاهي التي كان يجتمع فيها غالبية المجتمع التبسي قبل الهبة الإصلاحية، وقاد عاد لسابق عهده لجوها وسطحية أفكار روادها لابقاء الشعب في ظلامه، وغدا الإصلاح مجرد ثرثرة فارغة وأفرغ من محتواه الحضاري والفكري الذي يعطي للإنسان قيمة ورفعة وخطة بداية وخط نهاية ضمن رؤية إصلاحية لا تستعجل الغرس قبل السقي. فالصبر على مشاق إصلاح مجتمع اجتثت هويته أو كادت، لإعادته للسكة الصحيحة لأمر صعب ولا بد أن تهيء ظروف وتجتمع خصال في دعاة الإصلاح ورواده ليكون المستقبل أفضل من الماضي والحاضر هو الممهد لذلك. ويكنى بن نبي دعاة الإصلاحية بالقيادة المعجمة، ودعاة السياسة بالقيادة المطربشة.

"لقد فقدت الكلمة قيمتها بانتقالها من النادي أو المسجد إلى المقهى منذ سلمت القيادة (المعجمة) زمام الأمر للقيادة (المطربشة)" (بن نبي، 1984 ، صفحة 384) وهنا يسترعي انتباهنا الفكرة التي كان يروج لها جمال الدين الأفغاني بأن العمل السياسي هو المجدي والأمنع لتحرير الشعوب المستعمر من نير الاستعمار، وفيما خالفه محمد عبده الطرح وذهب إلى أن إصلاح أحوال المجتمع أولا ثم الانخراط في العمل السياسي، فيكون المجتمع محصن من الانجراف وراء التيارات المخالفة لعقيده وانتماؤه الثقافي، فاكتماب خبرة وتجربة ميدانية في الإصلاح تمد الفرد رؤية واضحة وهدف مرسوم منذ البداية نحو وجهة محددة لا تتغير بتغير القادة أو الزمان والمكان. فالثبات والصمود ورسوخ الفكرة السليمة والمبدأ أصعب الأمور التي تعصف بمنحى الإصلاح والتغيير الإيجابي.

فالنأي عن السياسة والتفرغ للإصلاح حتى تنضج ثماره وبناء شخصية ثابتة تدرك مالها وما عليها، حتى تكون هناك حصانة من الانجراف وراء الأعياب المستعمر في توجيه الأهالي كيفما يريد، باستخدام وسائل جديدة أكثر مكرًا ودهاء من سابقتها، ويصف بن نبي حال المجتمع الجزائري آنذاك بقوله: "وبدأ الوطن يهجر حلبة الواجبات، ويتجه إلى ميدان الحقوق والتقدمية (بن نبي، 1984 ، صفحة 385)" ويعقب:

إن هذا الظرف يكشف عن ظاهرة الفرار من الواجب والانخراط بالتظاهر والمظاهرات، تلك الظاهرة التي لم تكن نتائجها واضحة في الميدان السياسي، ولكنها في منتهى الوضوح في الحقل النفسي (بن نبي، 1984 ، صفحة 385).
الواجب كمفهوم أخلاقي وفلسفي يتضمن معنى الالتزام والقيد، فالشعب حسبه انغمس في المطالبة في حقوقه دون أن يلتزم بتأدية واجبه، وهذا له تأثير نفسي وبالتالي تغير في التوجه من العمل الإصلاحي إلى الفعل السياسي.
"كذلك أصبح ضمير الجمهور الجزائري لا يرتفع في لحظة موافقة إلى مستوى المشكلات الحيوية، دون أن يهوي مرة أخرى في الثثرة، بتأثير جاذبية الظهور، جاذبية محكمة يجيد الاستعمار تسليطها على الحركة الناشئة لتعكس اتجاهها إلى أسفل".

استنتج بن نبي أن الاستعمار درس ذهنية المجتمع الجزائري، فأراد تشتيت شملها، وإغراء بعض قادة الإصلاح بالمناصب والأموال، لكنه فضل في ذلك ولم يستقطب إلا القلة وهناك من خدم الأمة بصمت وأخرى بالكلمة الصادقة الجاهرة بالحق دون أن تخشى في ذلك لومة لائم. فالتعامل مع الأمور المصيرية بسطحية وبموجة كلام عابر يعقدها بدل أن يجد لها حلول جذرية كالمساومة في الانتماء تحت مظلة فرنسا بتسمية مسلم فرنسي والدعوة إلى الانتخابات والتظاهر بدل الثبات على المبدأ الأوحى في التخلص من كل ما يمت للاستعمار بصلة حتى لو منحنا أمان نسبي.

ويلوم بن نبي تقاعس العلماء عن الجهر في وجه الاستعمار وسكوتهم الذي يعني الرضا عن سياسته في تدمير كل ما بنوه خلال سنين في حملة انتخابية واحدة تصطف حولها الجماهير نفسها التي كانت بالأمس متحلقة حول خطب العربي التبسي وبقية رواد الإصلاح ويصف حالهم بقوله: "ولم يكن باستطاعة العلماء مواجهة هذا التيار، لأنهم بادئ ذي بدء لا يشعرون به، ولا يؤيدون من يشعر بخطورته".

والأدهى والأمر حسبه أنهم لا يستسيغون من يقظهم من غفلتهم.
ولكن ألا يمكن القول أن هذا الرأي مجحف في حقهم بما أنهم اختاروا الإصلاح والدعوة في لين ويسر ومحاولة التوفيق لا التفريق واحترام كل ما من شأنه أن يخدم الصالح العام حتى لو كان يخالف جوهر مبادئهم مدارة لشرح المجتمع وتشتيت صفه.
ومن جهة أخرى حز في نفس صاحب المذكرات أن: انتصار الاستعمار في هذه المعركة من دون أن يبذل ولا تضحية"

فالاستعمار ترك الساحة لأبناء الوطن الواحد للتناحر بطريقة سلمية، ونقصد بالتناحر هنا حرب الشعارات والأفكار والتوجهات والتيارات ليخلو له الجو ويطبق سياسته التي خطط لها تحت شعار فرق تسد.

ويضيف بن نبي بتهكم: "كنت أتعجب من عبث هذه الشبيبة التي تقضي يومها بمقهى باهي، تخطب، أليس من الأجدي أن تتجند للقيام بأي أمر إيجابي حتى تتكون عندها روح الخدمة والتضحية".

وشرح فكرته هذه بمقارنة مقبرة المسلمين التي وصفها بالحالة التي يرثي لها بنظيرتها مقبرة اليهود.

وبأسف يعايش شاهد القرن العشرين رجوع المجتمع التبسي القهقري، وكادت رياح المصلحة الشخصية الضيقة أن تقتلعه من جذوره من جديد ويقول في هذا الشأن: "وأصبح كل فرد مهتما بمعزوفته الشخصية في العزف العام ويسعى لمصلحته الخاصة باسم الإصلاح أو باسم الوطنية".

فهناك من يختبئ وراء كلمة الإصلاح الفضاضة ويغيب معها عقول المستمعين ويستجدي عواطفهم هذا من ناحية، وهناك من يردد كلمة الوطن والأمة أكثر من الفاتحة في صلواته ليتسلق على أكتافهم سلام الزعامة أو التزلف للحكومة الاستعمارية.

وتسترعي انتبهنا ملحوظة مهمة لبن نبي في قوله:

"وكثيرا ما لاحظت في حياتي أن المسلم المثقف مهما يكن نوع ثقافته، يخلق من نفسه المعوقات التي تحول دون العمل إن لم يجدها في طريقه." (بن نبي، 1984 ، صفحة 384)

وقد خلص لهذه الملحوظة بعد اختلاف وجهة نظره مع الشيخ العربي التبسي حول كتاب فقهي بأسلوب توعوي حديث طلبه هذا الأخير من نبي ترجمته فأضاف له أفكار تطبيقية لما جاء في الكتاب.

ولا يعني وجود هذه الثغرات في بداية الحركة الإصلاحية فشلها عن تأدية الرسالة التي أنشأت من أجلها وإنما تعتبر هذه الأفكار توجيهات لتقييم هذه التجربة الإصلاحية ووضعها تحت المحك لتجنب هذه الأخطاء مستقبلا وتداركها والمضي قدما.

5. الخاتمة:

باعتبار المفكر مالك بن نبي قد قضى فترة لا بأس بها من طفولته وشبابه بمدينة تبسة، وعاش الخطوات الأولى لميلاد الحركة الوطنية خلال القرن العشرين، وتحيز

للتيار الإصلاحي في بدايته ورأى فيه الأنموذج الذي يمكن أن يسر خلفه المجتمع التبسي كعينة من المجتمع الجزائري نحو الانعتاق من الاحتلال الفرنسي، ولا يتأتى ذلك بمعرفة الحقوق والمناداة بها دون تأدية الواجبات والعمل الدؤوب دون الانحراف عن الهدف المرسوم في البداية حتى خط الوصول، وأولى خطوات مواجهة الهوية الفرنسية بمكوناتها الثقافية هو التخلص من العادات التي ترسخت مع احتلال فرنسا للجزائر وأضحت جزء من هوية الجزائري دون أن يشعر وبالتالي أصبح الكثير من فئات المجتمع لا يفرق بين الهوية الأصلية والمستجدات التي طرأت عليها خاصة الدين وما شابه من أباطيل واللغة التي غدت شفاهية نظرا لانتشار الجهل والأمية. وقد وقف بن نبي على طباع سكان مدينة تبسة وسلوكاتهم اليومية قبل انطلاق الهبة الإصلاحية وبعدها، وقارن حاله والتحسين الذي استجد عليه وبذلك وقف على قابلية أفراد المجتمع الجزائري للتغيير نحو الأفضل وسلوك سبل الحضارة والتقدم بشرط أن يجد من يأخذ بيده ويؤطره بشكل صارم ومرن، وأشاد بجهود رواد الإصلاح الذين وضعوا حجر الأساس للعمل على التمسك بمكونات الانتماء من لغة ودين وعادات وتقاليد وثقافة تعكس الذوق الجمالي وفي نفس الوقت تحد صريح للثقافة الفرنسية وبرز ذلك جليا في الموسيقى، اللباس، أسماء الشوارع....

كما أكد على دور المجتمع كوحدة متكاملة في دفع عجلة التغيير ونبذ الأنانية والتعالي في سبيل تحقيق المرامي السامية، كما وقف على الثغرات التي يمكن تداركها مستقبلا.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي، ج3. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أحمد عيساوي. (2013). أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر (المجلد ج 1). الجزائر، دمشق: دار البلاغ الجزائر ودمشق.
- بيار كاستال. (2010). حوز تبسة. (تر: العربي عقون) مطبعة بغيجة حسام.
- جريدة البصائر. (14 جوان 1938). (العدد 117).
- خالد أقيس. (2012). الشيخ العربي التبسي الرئيس الثالث لجمعية العلماء المسلمين. دار الألمعية.

- سليم بعلوج. (د ت). الحركة الإصلاحية في منطقة تبسة 1927-1954 ، أطروحة دكتوراه تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية.
- سليم بعلوج. (د ت2018). تجربة النوادي لدى الحركة الإصلاحية، نادي الشبان المسلمين الجزائريين بمنطقة تبسة أنموذجا. مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد15، 345-354.
- شارل روبير أجيرون. (د ت). تاريخ الجزائر المعاصرة. (تر: عيسى عصفور، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
- مالك بن نبي. (1984). مذكرات شاهد للقرن. لبنان : دار الفكر المعاصر.
- مصطفى الأشرف. (2007). الجزائر الأمة والمجتمع. (تر: حنفي بن عيسى) الجزائر: دار القصة الجزائر.
- نصيرة براهيم. (2017). الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة تبسة 1930-1954. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 30-12.